ممالك المسلمين في الحبشة من خلال كتاب مسالك الإبصار في ممالك الأمصار لأبن فضل الله العمري

م.د. بشار أكرم جميل*

تاريخ التقديم: 2008/9/28 تاريخ القبول: 2008/12/30

يُعد ابن فضل الله العمري[1] من المؤرخين المسلمين البارزين في عصره، وذلك من خلال تأليفه لعدة كُتب إلا أن الأوسع والأهم منها هو موسوعته التي سماها مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، وقسمها إلى أبواب عّدة أختلف من أراد تجميعها وتبويبها في عدد مجلداتها، فهناك من قال أنها تتألف من عشرين مجلداً[2]، وهناك من قال أنها تتألف من أكثر من عشرين مجلداً دون تحديد العدد[3]، إلا أن محقق الجزء الذي بين أيدينا يشير إلى أن مسالك الأبصار يتألف من سبعة وعشرين جزءاً موزعة بين دور المخطوطات المختلفة [4]، في حين يشير

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(1) هو أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، ولد سنة 700هـ/1301م بدمشق، إلا أنه شب وتعلم بمصر، وقد ارتبطت أسرته برئاسة ديوان الإنشاء بمصر والشام لدولة المماليك لمدة قرن من الزمان، مما يوضح أنه نشأ وتعلم في أحضان ديوان الإنشاء وهو ما يفسر سهولة اطلاعه على الوثائق الرسمية للدولة. وقد توفي سنة 749هـ/1349م. ينظر: شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، (القاهرة: 1966): 354/1. وللمزيد حول حياة العمري يُنظر: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت: 1973): 159/1–160؛ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط4، (بيروت: 1984): 763/3.

(2) الكتبي، فوات الوفيات: 160/1.

(3) العسقلاني، الدرر الكامنة: 354/1.

(4) مصطفى أبو ضيف أحمد، مقدمة المحقق في الباب الثامن من كتاب مسالك الأبصار، (الرباط: 1988)، ص11.

كراتشوفسكي بأن أحمد زكي باشا قد أشار في مقدمة الجزء الذي حققه أن الكتاب يتألف من أثنين وثلاثين جزءاً [1]. ومهما يكن عدد مجلدات أو أجزاء الكتاب، فالذي يهمنا هنا هو الجزء الذي يتحدث به عن الحبشة.

قسم العمري كتابه إلى قسمين تناول الأول وصف الأرض، أما الثاني فتناول سكانها من مختلف الشعوب، وينقسم الأول بدوره إلى قسمين يطلق عليهما أسم (النوع)، ويبدو أنه أراد من تلك التسمية أن تكون مرادفة للفظ (الفن) الذي استخدمه النويري في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) ، فكان عنوان النوع الأول ((في ذكر المسالك)) ويتكون من خمسة أبواب الأول يبحث في أبعاد الأرض وحالها، والثاني في الأقاليم السبعة، والثالث في البحار، والرابع في القبلة والأدلة عليها، والخامس في الطُرق. أما النوع الثاني فيحمل عنوان ((في ذكر الممالك)) ويتكون من خمسة عشر باباً يتحدث أولها عن الهند والسند، والثاني عن ممالك جنكيز خان، والثالث عن آسيا الصغرى، و آخر عن مصر والشام والحجاز واليمن، ثم ممالك المسلمين في الحبشة وبلاد السودان ومملكة مالي ومملكة بر العدوة والأندلس، وأخيراً ذكر العرب الموجودين في عصره ومساكنهم وغيرها من أبواب ذلك النوع[2].

أما القسم الثاني من الكتاب فهو يبحث في سكان الأرض من الأمم، ويتكون من خمسة أنواع الأول يتناول المفاخرة بين المشرق والمغرب من خلال الطبيعة والحيوان وطوائف العلماء، والثاني يتناول الديانات، والثالث يبحث في طوائف المتدينين، أما الرابع فمكرس للتاريخ وفيه بابين الأول يتناول الدول القائمة قبل الإسلام، والثاني الدول الإسلامية [3]. ويبدو أن المحقق نسي أن يذكر لنا ما

(1) اغناطيوس يوليانوفتس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة: ايغور بلبايف، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، (موسكوفا: 1957): 411/1.

(2) مصطفى أبو ضيف أحمد، مقدمة المحقق في كتاب مسالك الأبصار، ص12.

(3) العمري، المصدر نفسه، ص12.

يحتويه النوع الخامس من القسم الثاني فهو لم يذكره خلال كلامه عن أجزاء الكتاب بشكل كامل.

إنَّ معلومات العمري حول الباب الثامن المتعلق بالحبشة بشكل خاص وبقية الأبواب بشكل عام لم تأتِ من مشاهدته وزيارته لتلك الأماكن ، بل جاءت من خلال عمله في ديوان الإنشاء في مصر وإطلاعه على الكثير من المراسلات الرسمية بين حكام مصر وحكام بقية الدول ومنها الحبشة، وكذلك من لقائه بعدد من المصريين الذين زاروا الحبشة، أو من الأحباش الذين زاروا مصر كالشيخ عبد الله الزيلعي [1]، والشيخ الصالح عبد المؤمن، والتاجر فرج الفوي، وغيرهم من الفقهاء. والذين زودوا المؤلف بمعلومات كبيرة عن مملكة أوفات [2] قياساً لمعلوماته عن الممالك الأخرى.

ولابد من الإشارة إلى أن هـ تم استخدام العنوان نفسه الذي اتخذه المؤلف للباب الثامن من الكتاب وهو (ممالك المسلمين في الحبشة) كعنوان للبحث ليتضح

---

(1) الزيلعي: وهو الذي تم اختياره من قبل مسلمي الحبشة ليكون رسولاً لهم إلى السلطان محمد بن قلاوون سلطان مصر ليبلغه ما يجري من اضطهاد للمسلمين من قبل نصارى الحبشة، وقد صادف أن ترافقت تلك الزيارة بوجود مبعوث ملك الحبشة إلى السلطان محمد ليأذن لهم في أن يتم ترشيح مطران لكنيستهم من قبل بطريرك الإسكندرية، ولهذا أمر السلطان محمد راعي كنيسة الإسكندرية أن يطلب من ملك الحبشة النظر بتلك الدعوى والذي أنكر بدوره ذلك الفعل ورفضه رغم علمه به. يُنظر: العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص36. ويبدو أن لقاء العمري والشيخ الزيلعي قد تم خلال تلك الزيارة.

(2) مملكة اوفات: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، ويقال لها (جبرة) والنسبة إليها جبرتي وهو أسم مشتق من كلمة (اجبرت) الحبشية وتعني (عباد الله)، وتقع المملكة غرب زيلع التي لم يذكرها المؤلف وهي مملكة كبيرة. وممالك الطراز الإسلامي: هي الممالك الواقعة في القسم الشمالي الغربي من ساحل شرق أفريقيا والمقابلة لبر اليمن على أعلي بحر القلزم (الأحمر) وما يتصل به من بحر الهند، وسميت بالطراز لأنها على جانب البحر كالطراز له. يُنظر: عمر سلهم صديق، الحركة الصليبية في ساحل شرق أفريقيا (669–950هـ/1270–1534م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: 2001)، ص49.

للقارئ مدى انسجام العنوان مع ما تضمنه الباب من ممالك، و فضلاً عن ذلك فقد تم التعريف بالشخصيات أو المدن أو النباتات والحيوانات والمعادن التي لم يعرفها المؤلف ومن بعده محقق ذلك الجزء من الكتاب. كما أن العمري وفي الباب نفسه الذي يتحدث فيه عن المسلمين يشير في النهاية إلى ممالك النصارى هناك، لا بل يعود ليتحدث عن ممالك المسلمين خلال كلامه عن النصارى وهو ما أحدث تداخل في المعلومات المكتوبة.

لقد أشار العمري في القسم الخاص ببلاد الحبشة إلى موقعها في بداية الأمر قائلاً إنَّ بحر الهند (المحيط الهندي) واليمن يحدانها من الشمال الشرقي، ومن الغرب بلاد التكرور [1]، إلا أنه لم يذكر ما يحيط بالحبشة من الشمال أو الجنوب. في حين يشير إلى وجود نهر يسمى سيحون يجري في الحبشة ويزود النيل بالماء وماؤه حلو غير مالح [2]. ويتضح لنا من خلال ما سبق عدم مقدرة العمري على إعطاء التسميات الدقيقة للاماكن بسبب عدم زيارته للمنطقة، كما أن تسميته للباب الثامن من الكتاب جاء مخالفاً للحقيقة وغير دقيق قياساً لكل من عاصره أو سبقه من المؤرخين والجغرافيين المسلمين والذين أكدوا أن ممالك

(1) بلاد التكرور: أسم أطلقه المؤرخون العرب على مملكة مالي وهو في الواقع كما يذكره العمري ليس 0السودان الغربي والأوسط التي دخلها الإسلام، وأصبحت كلمة تكروري مرادفة لكلمة سوداني. للمزيد ينظر: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: 1960)، ص 26؛ العمري، مسالك الإبصار،الباب الثامن، ص60.

(2) العمري، المصدر نفسه، ص 46. لكننا نعلم أن نهر سيحون يقع في بلاد ما وراء النهر وليس في الحبشة. وقيل إنَّ النهر المسمى الفردوس ينقسم إلى أربعة رؤوس هي سيحون وفيشون ودجلة والفرات، وسيحون يحيط بأرض كوش الحبشة. ينظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، (بيروت: 1995)، ص136. وفي الحقيقة أن ذلك النهر ما هو إلا نهر النيل الأزرق أو أباي (Abbay) حسب ما يسميه الاثيوبيون، كما يسميه السكان هناك رجيون أو جيحون أو جن. ينظر: محمد محفوظ عمر جوبان ، أنتشار الإسلام في الحبشة – دراسة في التأثيرات السياسية والاقتصادية –، اطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل: 2001)، ص 287.

المسلمين في الحبشة تشمل أكثر من ذلك ويؤكد ذلك القلقشندي بقوله: ((وأهمل المقر الشهابي بن فضل الله في مسالك الأبصار عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين ومنها جزيرة دهلك ومدينة عوان ومدينة مقديشو))[1].

لقد وصف المؤلف طبيعة أرض الحبشة بالوعرة لكثرة جبالها العالية وارتفاع أشجارها وتشابكها مع بعضها، لدرجة أنه إذا ما خرج أحد ملوكها ليذهب إلى مكان ما يسبقه رجاله لفتح الطريق من خلال قطع الأشجار وحرقها [2]. أما مساحتها فطولها في البر والبحر مسيرة شهرين [3] وعرضها ممتد أكثر من ذلك إلا أنه مقفر. أما ما هو معمور من تلك الأراضي فيساوي ثلاثة وأربعين يوماً طولاً، وأربعين يوماً عرضاً [4]. والغريب في الأمر هنا أن العمري حينما بدأ ببيان طول كل مملكة من الممالك على حدى يكون المجموع ثمانية وخمسين يوماً، والأمر نفسه ينطبق على عرض الممالك فبعد تفصيلها وجمعها يكون الناتج ثمانية وأربعين يوماً. وهي أرقام لا تطابق ما ذكره سابقاً[5].

---

(1) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط1، (بيروت: 1987): 5 /319–320.

(2) العمري، مسالك الإبصار ،ص45.

(3) شهران هنا بالمسير الاعتيادي أي ستون يوماً واليوم: هو وحدة استخدمها الكُتاب العرب المسلمون لحساب المسافة، ويساوي اليوم ثمانية فراسخ. يُنظر: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر أبو الفدا، تقويم البلدان، (باريس: 1840)، ص79. وبما أن الفرسخ يساوي 6كم. يُنظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمه عن الألمانية: كامل العسلي، (عمان: 1970)، ص94–95. إذن اليوم يساوي (48كم). أي أن طول الممالك الإسلامية يساوي (2880كم).

(4) العمري، مسالك الإبصار، ص36.

(5) يقول المؤلف أن مملكة أوفات طولها خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون، ومملكة بالي طولها عشرون وعرضها ستة أيام، ومملكة هدية طولها ثمانية أيام وعرضها تسعة، وشرحا طولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة، ومملكة دوارو طولها خمسة أيام وعرضها يومان، ومملكة ارابيني أربعة أيام طولاً وعرضها كذلك، وأخيراً مملكة داره طولها ثلاثة أيام والعرض ثلاثة. ينظر: ص37–44. فإذا ما جمعنا ناتج الطول يصبح ثمانية وخمسين يوماً في حين ذكر المؤلف أن المعمور منها ثلاثاً وأربعين يوماً فقط أي أن هناك فرقاً كبيراً، والأمر نفسه ينطبق على العرض.

وبعد أن حدد العمري الموقع الجغرافي للمنطقة يعود ليتكلم عن لغتها قائلاً إنَّ سكانها يجيدون الحبشية فضلاً عن اللغة العربية، لكنه يعود ليستدرك القول بأن لغاتهم متعددة وتصل إلى خمسين لساناً (لغة) [1]. وربما أن اللغة الحبشية هي اللغة الجعزية والتي كانت تستخدم في الحبشة لوقت متأخر، فهي تُكتب كالعربية من اليمين إلى اليسار، إلا أنها تنفرد بكونها تتألف من ستة عشر حرفاً لكل سبعة فروع، ليكون مجموع حروفها مئة واثنين وثمانين حرفاً فضلاً عن حروف أخرى مستقلة بذاتها[2]. ويبدو أن العمري عاد هنا مرة أخرى ليعطينا أرقام خاطئة فإذا ما ضربنا عدد الأحرف في الفروع فلن ينتج لنا ما توصل إليه المؤلف، كما أنه لم يوضح لنا هل أن اللغة الحبشية تتألف من الفروع السبعة أم هناك فروع أخرى.

وقبل خوض المؤلف في التفاصيل الاجتماعية والاقتصادية لتلك الممالك أشار إلى أن سكانها كانوا على مذهب أبي حنيفة النعمان على عهده سوى مملكة أوفات والتي أتبع سكانها المذهب الشافعي [3]. ويبدو أن وصول المذهب الشافعي إلى مملكة اوفات كان بسبب قربها من مصر واختلاط أهلها مع المصريين وتأثرهم بمذهبهم، أما المذهب الحنفي الذي تمسكت به بقية الممالك فهو أيضاً أحد المذاهب المتبعة في مصر وربما جاء من خلال الذهاب لتأدية فريضة الحج والإطلاع عليه والحصول على الكتب التي كُتبت عنه.

كما خصص المؤلف مساحة واسعة للحديث عن النظام العسكري لتلك الممالك، مشيراً في بادئ الأمر إلى عدد الجُند وتسليحهم في كل مملكة، مبتدءاً بمملكة هدية[4] التي تمتلك أكبر عدد من الجند، إذ يبلغ عدد فرسانها نحو أربعين

(1) العمري، مسالك الإبصار، الباب الثامن، ص46.
(2) المصدر نفسه، ص46.
(3) العمري، المصدر نفسه، ص 42–44.
(4) مملكة هدية وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي في الحبشة تقع جنوب مملكة اوفات، وأهلها حنفية المذهب، وإليها يُجلب العبيد بعد خصيهم للعلاج. يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 327/5؛ صديق، الحركة الصليبية، ص 53.

ألف فارس، أما المشاة فهم أكثر من ذلك بمرتين [1]، في حين يصل عدد فرسان مملكة بالي[2] إلى ثمانية عشر ألف فارسٍ، والمشاة أكثر من ذلك[3]، وعدد فرسان مملكة دوارو [4] يزيد عن فرسان مملكة أوفات والبالغ خمسة عشر آلاف رجل يتبعهم عشرون ألفاً أو يزيد من المشاة [5]، ويعود ليذكر لنا عدد جند مملكة ارابيني[6] قائلاً إنهم عشرة آلاف فارس أما المشاة فكثير [7]، وفي مملكة شرحا [8] كان هناك ثلاثة آلاف فارس وضعف ذلك من المشاة، فيما يبلغ جند مملكة داره[9] داره[9] ألفي رجُل بين فارس وراجل[10].

(1) العمري، نفسه، ص42.

(2) مملكة بالي: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي تقع جنوب مملكة دارة ولها عسكر كبير، وهي أكثر الممالك خصوبة، وأطيبها سكناً وأبردها هواءً، وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة: 1895)، ص8.

(3) العمري، نفسه، ص44.

(4) مملكة دوارو: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، تقع جنوب مدينة شوا، ورغم صغر مساحتها إلا أنها تمتلك قوة عسكرية كبيرة، وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: المقريزي، الإلمام، ص7.

(5) العمري، نفسه، ص37.

(6) مملكة ارابيني: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، وتقع شمال شرق بحيرة تانا، وهي مربعة الشكل، وأهلها حنفية المذهب. يُنظر: العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص42؛ صديق، الحركة الصليبية، ص53.

(7) العمري، نفسه، ص42.

(8) مملكة شرحا: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي، وربما تُكتب شرخا، وتقع غرب مملكة اوفات وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: صديق، الحركة الصليبية، ص54.

(9) مملكة داره: وهي إحدى ممالك الطراز الإسلامي وتقع على الحدود الغربية لمملكة اوفات وشمال شرق مملكة هدية، وأضعف الممالك مالاً وأقلها خيلاً ورجالاً، وأهلها مسلمون أحناف. يُنظر: صديق، الحركة الصليبية، ص54.

(10) العمري، نفسه، 43.

أما سلاح الجيش في تلك الممالك فهو القسي والنبال الشبيهة بالنشاب [1]، والسيوف والمزاريع[2] والحراب، أما الترس فمنهم من يستخدم الترس الطويل ومنهم من يرتدي اتراس قصيرة، وهناك جزء آخر مكمل لتجهيزات الجيش وهو الأبواق، إذ يستخدم الجند أبواق مصنوعة من خشب القنا المجوف ومن قرون البقر المجوفة[3]. وفيما يتعلق بالدواب التي يستخدمها الجند في القتال فهي الخيل، إذ يركبها أهل مملكة اوفات دون وضع السروج على ظهورها بل يستبدلونها بوضع جلود مصنوعة من المرعز، إلا أن استخدام البغال كان أكثر من الخيل في بقية الممالك[4].

ويشير المؤلف في الوقت نفسه إلى قوة وشجاعة أولئك الجُند ورغبتهم في القتال لدرجة أنهم لا يلبسون دروعاً أثناء القتال ولا يُلبسون خيولهم السروج أو الدروع، كما أنهم ملتزمون بأخلاق الفارس فهم رغم شجاعتهم وقدرتهم على هزيمة أعدائهم إلا أنهم يصفحون عمن يؤذيهم إنْ أمكن ذلك فكل من رمى سلاحه أثناء القتال يحرمون قتاله[5].

---

(1) النشاب: السهم والنبل والنشاب أسماء لمسمى واحد. ينظر: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة، المخصص، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (القاهرة: 1321هـ)، ج6، م2، ص47. إلا أن أبن منظور أشار إلى أن النبال تعني السهام بالعربية. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 571/3. وهو ما يدل على وجود سهام غير عربية والتي تسمى النشاب بالفارسية. ينظر: محمود أحمد محمد سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، مكتبة المنار، ط1، (الزرقاء: 1987)، ص292.

(2) المزاريع: وسماها المؤلف أيضاً في موقع أخر المزاريق ومفردها مزراق وهي رماح قصيرة يستخدمها مشاة الجيش، وهي أقصر طولاً من تلك التي يستخدمها الفرسان، وقد استخدمها الجيش العربي الإسلامي في مختلف أرجاء الدولة العربية الإسلامية، ومنها الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين. ينظر: محسن محمد حسين، الجيش المملوكي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، ط1، (بيروت: 1986)، ص272.

(3) العمري، مسالك الإبصار، ص48.

(4) العمري، نفسه، ص37.

(5) العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص46.

ورغم تركيز المؤلف على مملكة اوفات في أغلب حديث عن الحبشة وبالذات ملكها والذي يُطلق عليه لقب (قاط) هناك، إلا أنهلم يذكر بتاتاً اسم ذلك الملك رغم ذكره من قبل غيره من المؤرخين [1]، فهو يتحدث عن مواكبه وجلوسه وملابسه وحاشيته دون ذكر شيء عن اسمه أو اسم غيره من ملوك الممالك الأخرى، قائلاً إنَّ ملك تلك المملكة حينما يخرج إلى مكان ما يركب بغله فيتبعه غلامه ليتكفل بخدمة بغله، أما إذا ما ركب فرساً فلا يتبعه أحد [2]. وإذ ما مشى على قدميه يتوكأ على رجلين من خاصته، وإذا ما جلس فإنَّه يجلس على كرسي حديد علوه أربعة أذرع[3]. ويجلس أكابر الأمراء حوله على كراسي أقل ارتفاعاً من كرسيه، أما بقية الأمراء فهم وقوف، ويحمل رجلان على رأس الملك السلاح، وينفرد ملكها عن بقية ملوك الممالك السبع بأنه إذا ما ركب على فرسه يُحمل على رأسه جتر حرير [4] من قبل أحد غلمانه، كما يتقدم موكبه الحُجاب والنقباء لفتح الطريق، وتُضرب أمامه الشبابة [5] والأبواق المصنوعة من الخشب، وفي رؤوسه ا قرون البقر، وتضرب معها الطبول المعلقة في أعناق الرجال، كما يتقدم الجميع رجل يحمل بوق أسمه (الحنبا) مصنوع من قرون نوع من أنواع البقر الوحشي يُدعى (عجزين)، ويكون ذلك البوق مخروقاً من الأعلى وله صوت عالٍ ليفتح

(1) تولى عرش اوفات في تلك الفترة عدة ملوك كان من بينهم حق الدين الأول الذي أسره ملك الحبشة (عمدا صيون) ووضع بدلاً عنه أخيه (صبر الدين) سنة 729هـ / 1328م والذي وقع في الأسر أيضاً ليأتي بعده أخوه (جمال الدين). يُنظر: المقريزي، الإلمام، ص9.

(2) العمري، نفسه، ص37.

(3) الذراع: وهو أحد مقاييس الطول، ويوجد عدة أنواع من الأذرع تختلف عن بعضها حسب كل بلد، فهناك ذراع مصرية وذراع استانبولية وذراع البريد وذراع البز، إلا أن أقرب شيء لها لكون الكرسي مصنوع من الحديد هو ذراع الحديد والذي يساوي (187ر58سم). يُنظر: هنتس، المكاييل والأوزان، ص83–93.

(4) الجتر: وهي مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب وعادةً ما تُحمل على رأس الملك في موكب الصيد. يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 4/7–8.

(5) الشبابة: وهي آلة موسيقية. يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، هامش رقم (1): 5/318.

الناس الطريق أمام موكب الملك، ويبالغ المؤلف في ارتفاع صوت ذلك البوق ليقول إنَّه يسمع من مسافة نصف يوم (24 كم)[1].

ويرتدي الملك في مملكة اوفات عصابة من الحرير يلفها حول رأسه ويبقى وسط رأسه مكشوفاً، أما الأمراء والجند فيشدوا حول رؤوسهم عصائب من القطن، أما الثوب المخاط فلا يلبسه سوى الملك والفقهاء وعلية القوم، إذ إنَّ الغالب على بقية الرعية الأتزار بوزرتين واحدة على الكتف والأخرى على الوسط، وعلى الرأس يلبس العامة الكوافي البيض[2] كما يلبس الفرسان السراويل[3]. وتكاد تكون ملابس الخاصة والجند متشابهة في أغلب الممالك صيفاً وشتاءً والمتمثلة بالأقمشة الحريرية والابراد الهندية[4] أما العوام فيرتدون الثياب المصنوعة من القطن المنسوج غير المخيط، إذ يرتدي كل واحد ثوبين أحدهما يشد به وسطه وآخر يلتحف به[5]. به[5].

ولا يمنح ملك أوفات أمراءه وجنده نقوداً بل يمنحهم الأراضي الواسعة الموجودة في المملكة لزراعتها، ولذلك الملك سماط [6] عام ممدود، وسماط له ولخاصته إلا أنه كان يعطي أمراءه ولاسيما المقربين منهم بقراً عوضاً عن تلك

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص38.

(2) الكوافي: ومفردها كوفية وهي عبارة عن منديل مربع يُلبس فوق الرأس وله من الطول ذراع ومثله من العرض، وهو ذو الوان مختلفة ولونه أحمر غامق أو ضارب إلى الدكنة أو من اللون الأخضر الزاهي أو الأصفر أحياناً. يُنظر: رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، (بغداد: 1971)، ص315.

(3) العمري، مسالك الأبصار، ص37–38.

(4) الأبراد الهندية: مفردها بردة وهي كساء يلتحف به الرجال كغطاء للبدن، وقيل إذا جعل للصوف شقة وله هدب فهو بردة، وقيل هي شملة مخططة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: 87/3.

(5) العمري، مسالك الأبصار، ص47.

(6) السماط: سماط القوم أي صفهم، ويقال: إنَّ القوم حوله سماطان أي صفان، وكل صف من الرجال سماط، كما يقال السماط الجماعة من الناس. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 325/7. والمراد هنا هو مأدبة الطعام التي يقيمها الملك له ولخاصته.

السماط.ويحتل الملك في مملكة اوفات في بعض الأحيان مكانة القاضي إذ يحل المشاكل بنفسه ويحكم بين الرعية على الرغم من وجود قاضي أو فقيه يلجأ إليه الناس[1]. ويبدو أن الملك يريد بذلك التشبه بما فعله الحكام المسلمون في أفريقيا جنوب الصحراء، إذ كان سلطان دولة مالي الإسلامية (سليمان) يجلس لحل مشاكل الناس وحلها[2]، وربما ذهبوا أبعد من ذلك ليتشبهوا بما كان يفعله الخلفاء الراشدين من التصدي لما يواجه المسلمين من مشاكل ولاسيما التي لا تدخل ضمن صلاحيات القاضي[3].

والحكم في الممالك السبع وراثي سوى مملكة بالي والتي أصبح فيها الحكم على عهد المؤلف بيد رجل ليس من بيت الملك الذي سبقه بسبب تقرب ذلك الرجل من صاحب امحرا[4] حتى ولاه الحكم في المملكة فأستقل بها، وعلى الرغم من كون الحكم في بقية الممالك كان وراثياً إلا أن تولي الحكم لن يتم إلا بعد أخذ موافقة صاحب امحرا، فإذا ما مات الملك توجه بقية أفراد العائلة إلى النجاشي ليتقربوا منه ليختار أحدهم فيسمع البقية له ويطيعوه، وعلى الرغم من ذلك فقد كان حكام تلك الممالك يعدوا حاكم مملكة اوفات مثلهم الأعلى ومرجعهم فيما يواجههم من مشاكل فينقادوا له بالمعاضدة إذا اقتضى الأمر[5].

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص41.

(2) محمد بن عبد الله بن محمد بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، اعتنى به وراجعه: درويش الجويدي، المطبعة العصرية، (بيروت: 2007): 280/2.

(3) أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ط 1، (القاهرة: 1991)، ص167–168

(4) صاحب امحرا: وهو ملك الحبشة الذي كان يُطلق عليه لقب النجاشي ويتبعه سكان الممالك النصرانية في الحبشة فضلاً عن تبعية ممالك المسلمين له في حالة كون العلاقات بينهما سلمية، ويتخذ النجاشي من إقليم امحرا مقراً له. يُنظر: ت.تامرات، القرن الأفريقي – السليمانيون المنتسبون للملك سليمان الحكيم – في أثيوبيا ودول القرن الأفريقي، بحث منشور في كتاب تاريخ أفريقيا العام، (اليونسكو: 1988): 433/4.

(5) العمري، مسالك الأبصار، ص44–45.

لقد كانت العلاقات بين الممالك المسلمة والنصارى هناك متبادلة فحاجة الحبشة لمصر في تعيين مطران لكنيستها من خلال اختيار كنيسة الإسكندرية له، يقابلها حاجة مصر في أن يقوم الأحباش برعاية المسلمين في بلادهم وعدم إيذائهم فضلاً عن قيام الأحباش بالحفاظ على مجرى نهر النيل وإصلاح سلوكه [1]. ولولا تلك المصلحة ولاسيما تلك المتعلقة بتعيين مطران لكنيسة الحبشة من قبل كنيسة الإسكندرية لما تأخر الأحباش يوماً في القضاء على المسلمين الموجودين في الحبشة ولما تنازلوا لسلطان مصر أبداً بطلبهم ذاك[2].

كما أشار المؤلف إلى وجود الكثير من المساجد والجوامع المنتشرة في تلك الممالك، مما يدل على تمسك أهلها بإقامة شعائر الإسلام، كما ذكر أنه لا توجد في تلك الممالك مدارس وأربطة وخانقاه [3] وزوايا كالموجودة في بقية بلاد الإسلام[4].

ويصف السكان في الحبشة بشكل عام بالصدق والأمانة، قائلاً إنَّ صاحب اقا كان يتخذ منهم أمناء على الحريم والأولاد، كما أن التجار الكارمية [5] وأغنياء

(1) المصدر نفسه، ص51.

(2) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (القاهرة: 1894)، ص31.

(3) الخانقاه: بالقاف والكاف جمعها خوانق، لفظة فارسية تعني البيت، وهو بناء أُقيم على نظام الصحن الذي يحيط به إيوان واحد أو أكثر، وهي بلا مئذنة ولا منبر وتضم مسجداً لا تقام به صلاة الجمعة، ويُلحق به أحياناً ضريح أو مدرسة، وتُدرس في الخانقاه العلوم الدينية على المذاهب الأربعة، ويعود تاريخ بناء أول خانقاه إلى القرن الثاني للهجرة في مدينة الرملة بفلسطين. يُنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص188؛ أدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب اللبناني، (بيروت: د/ت): 23/2.

(4) العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص36.

(5) التجار الكارمية: أطلق المؤلف عليهم الكرامية، وهناك رأي يقول إنَّ تسمية كارم مأخوذة من كلمة (Kuaraima) وهي لفظة أمهرية تعني الهيل أو الحبهان وهو من التوابل التي أشتهر أولئك التجار بالعمل بها. ورأي آخر يشير إلى أن كلمة كارم هندية أصلها كاريام

القوم كانوا يجعلونهم نواباً على حفظ أموالهم وتجارتهم الخارجية [1]. كما أنه إذا ما طلب المجرم العفو من المُعتدى عليه مع اعترافه بالذنب تجاوز عنه، كما أنهم يحبون الغريب ويكرمون الضيف، ولا ينقضوا عهداً لصديق، وإذا ما تعاهدوا أكدوا المحبة، وإذا تباغضوا أعلنوا المباينة، فضلاً عن كونهم أذكياء أقوياء الحدس لهم صناعات وعلوم، و يضرب المؤلف مثلاً على حب الأحباش للآخرين وإكرامهم للضيف النجاشي خلال استقباله للصحابة عند هجرتهم إلى بلاده في السنة الخامسة للبعثة[2].

إلا أن الأمر أختلف على عهد العمري فكان نصارى الحبشة يشنون الهجوم تلو الآخر ضد المسلمين هناك والمعارك التي حدثت بين الجانبين تؤكد ذلك.والتي ابتدأت بتحالف الأحباش مع الغرب الصليبي منذ النصف الثاني للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي وما تبعها من اعتداءات مستمرة على ممالك الطراز الإسلامي في الحبشة، ولاسيما في عهد العمري حينما تسلم عرش الحبشة (عمدا صيون بن ودم ارعد) لل مدة 714 – 745هـ/1314–1344م[3]، ورغم كل ذلك إلا أن العمري لم يشير إلى ذلك سوى إشارة عابرة تمثلت بقوله: ((وتسلط ملك ملوك الحبشة صاحب امحرة عليهم مع ما بينهم من عداوة في الدين ومباينة ما بين النصارى والمسلمين))[4].

أما المساكن فهي مبنية من الطين أو الحجر أو الخشب ومسقفة على شكل قباب أو جملونات، ولا يحيط بتلك الدور أسوار، كما أنها ليست فخمة البناء[5]، ويضيف المؤلف إلى ذلك في موقع آخر قوله إنَّ المساكن ولاسيما في

وتعني الأعمال أو الأشغال. يُنظر: عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، مج22، (القاهرة: 1975)، ص25.

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص52.

(2) المصدر نفسه، ص46.

(3) J.S.Tirmingham , Islam in Ethiopia (Oxford University: 1976), p.70.

(3) العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص32.

(5) المصدر نفسه، ص36.

القرى والمدن الصغيرة مبنية من الاخصاص [1]، أما الأواني التي يستخدمونها في الطعام فمصنوعة من الفخار المدهون بالأسود، ووقودهم الشمع ووقود مصابيحهم شحوم البقر، كما يستخدم النساء والرجال السمن لدهن وجوههم[2].

ومن الأمور التي تطرق إليها المؤلف تجارة الرقيق والتي بدأ الإسلام ومنذ ظهوره في محاربتها وتجفيف منابعها وتحرير الرقيق بشكل تدريجي. إلا أن بعض تجار المنطقة من الذين لم يدخلوا في الإسلام والذين وصفهم المؤلف (بالهمج الكفار) من سكان مدينة وشلوا [3] كانوا يقومون بجلب الرقيق إلى بلادهم والقيام بأخصائهم ليتم بيعهم في المدن التي تحتاج إليهم لحماية نساء القصور، وكان الرجُل الذي يتم اخصائه يتعرض لسد مجرى البول ولهذا يتم معالجته في مملكة هدية المسلمة والتي كان يرفض ملكها وسكانها عملية الأخصاء والتي رفضها الإسلام بشكل عام[4].

وبعد أن انتهى المؤلف من كلامه ذاك عاد ليتناول اقتصاد تلك الممالك مبتدئاً بعملتها إذ لم يكن في مملكة اوفات دار لضرب العملة ولهذا كانوا يتعاملون بدنانير ودراهم تدخل إليهم مع التجار الداخلين لبلادهم[5]. وربما تكون تلك المملكة المملكة هي الوحيدة التي تستخدم تلك العملة. فمملكة دوارو ومملكة شرحا ومملكة ارابيني تتعامل بالحديد والذي يكون على شكل إبرة يُطلق عليها اسم (حكنه)، وغالباً ما تكون تلك العملة بعرض ثلاث ابر وليس لها سعر تُضبط به، فسعر البقرة مثلاً بخمسة آلاف حكنه ويباع رأس الغنم الجيد بثلاثة آلاف حكنه، وهناك

(1) الأخصاص: مفردها خص وهو بيت من شجر أو قصب. وقيل الخُص البيت الذي يُسقف عليه بخشبة على هيئة الأزج. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: 26/7.

(2) العمري، مسالك الأبصار، ص50-51.

(3) وشلوا: وهي أحدى مدن الحبشة وتقع بالقرب من مملكة هدية الإسلامية، وكان يتم أخذ الرقيق الأفارقة إليها ليتم اخصائهم وبيعهم. يُنظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 327/5-328.

(4) العمري، مسالك الأبصار، ص43.

(5) المصدر نفسه، ص41.

نوع أخر من العملة يُستخدم في ممالك بالي وهدية وداره ويتمثل با لمقايضة، فيقوم من لديه بقراً أو غنماً أو قماشاً بتقديمها للحصول على المواد الغذائية الأخرى مثلاً[1]. ويستخدم سكان مملكة اوفات في أوزانهم وحدة تسمى الرابعية ومقدارها ويبة مصرية[2]، وقيمة الرطل لديهم إثنتا عشرة أوقية، إذ إنَّ وزن الأوقية عشرة دراهم نقرة بصنجة مصر[3].

أما أشهر المزروعات في مملكة أوفات فهي أشجار الموز والاترج والليمون والجميز وقليل من أشجار النارنج فضلاً عن أشجار الرمان البري والخوخ البري، وبعض النباتات غير الموجودة كما يقول المؤلف في العراق وبلاد الشام كشجرة تُعرف باسم (كشباد) وهو ثمر حلو المذاق أحمر اللون، أما النوع الآخر من الأشجار فأسمه (كوشي) وثمره مدور كالبرقوق [4] فضلاً عن شجرة اسمها (طانة) في وسط الثمر شبيه النوى ذو طعم حلو، والنوع الأخير هي أشجار (الاوجاق) وهو ذو ثمر حجمه أكبر من حب الفلفل وطعمه شبيه به في الحرقة مع بعض الحلاوة[5].

ويعتمد الناس في ممالك الطراز الإسلامي كبقية ممالك الحبشة في زراعتهم على الأمطار التي كانت تنزل مرتين في السنة ليحصدوا موسمين زراعيين، إذ يسقط المطر مرتين خلال الموسم الأول ليُزرع على ذلك الموسم

(1) المصدر نفسه، ص42–44.
(2) الويبة المصرية: وهي مكيال مصري بالدرجة الأولى وكان يعادل في السابق (10) امنان أو (168ر12) كغم قمح. يُنظر: هنتس، المكاييل، ص80.
(3) العمري، مسالك الأبصار، ص39.
(4) البرقوق: نبات ذو لون أصفر كلون المشمش، وهو ذو طعم حامض يُستعمل عصيره في الطبخ ويُطلق على البري منه أسم (الاجاص الجبلي). ينظر: توفيق فهد، علم النبات والزراعة، بحث منشور في كتاب موسوعة تاريخ العلوم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، (بيروت: 1997): 1054/3.
(5) العمري، مسالك الأبصار، ص39.

الثاني، ويسمى المطر الواقع في فصل الشتاء (بل)، والمطر المتساقط في الصيف يسمى (كرم) بلغة الزيالعة[1].

أما الحيوانات الموجودة في تلك الممالك فعديدة، منها الأليفة كالخيل، والبقر الموجود بكثرة هناك والذي يؤخذ من شحمه للطعام كما يُشرب لبنه فضلاً عن استخدامه للتداوي من المرض بعد أن يُزاد إليه الماء، وأغنامهم تشبه أغنام مدن عيذاب واليمن، فضلاً عن وجود البغال والأبل والجاموس البري، أما الحيوانات المفترسة فمنها الأسد والنمر والفهد، فضلاً عن وجود الفيل ة والزرافلت والبقر الوحشي والقرود [2]. أما الطيور فهي الصقور والنسر الأبيض والأسود، فضلاً عن الغراب والحجل [3] والسمان [4] والحمام والعصافير والبزاة [5] أما البرية فمنها دجاج الحبش الذي يؤكل بشكل كبير في مملكة اوفات بسبب عدم رغبتهم بالدجاج العادي لأنه يأكل من المزابل حسب زعمهم، والمائية كالبط، ونوع آخر من الدجاج يخرج من بركة ماء في إقليم هدية الإسلامي[6].

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، الباب الثامن، ص 48. والزيالعة: نسبة إلى بلاد زيلع وهي كما عرفها العمري قرية بالبحر من قرى ممالك الطراز الإسلامي وجزيرة من جزرها، كما يقول إنَّ ملك اوفات يحكم على الزيلع والذي هو ميناء للتجار الواردين إليها. يُنظر: العمري، ص36–37.

(2) نفسه، ص48–50.

(3) الحجل: وتشمل طيور القبج والدراج، والتي لا تمتلك عشاً على الأشجار لعدم تمكنها من الطيران عالياً بل تصنع لها على الرمل مكاناً من أعواد الشجر لتبيض وتتركه، ويوجد ذلك الطير في أماكن عديدة. يُنظر: ارسطو طاليس، طباع الحيوان، حققه وشرحه وقدم له: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط1، (الكويت: 1977)، ص392.

(4) السمان: وهو طائر يتواجد في الجزيرة العربية وأفريقيا وجنوب شرق أسيا واستراليا، إذ يعيش في المناطق التي يتواجد فيها حشائش وفي الغابات. ينظر: محمود بديع، موسوعة طيور العالم، دار اليوسف للنشر والتوزيع، ط1، (بيروت: 2005)، ص142.

(5) البزاة: نوع من الطيور الثقيلة الوزن لها مخالب معقوفة تستطيع من خلالها أفتراس الطيور الأصغر حجماً، وهناك نوع من تلك الطيور تبني أعشاشها في أماكن بعيدة عن الناس ولاسيما في الصخور العالية. يُنظر: أرسطو طاليس، طباع الحيوان، ص257–258.

(6) العمري، مسالك الأبصار، ص50.

كما يوجد في تلك الممالك السمك الذي يشبه البوري ومنه ما يشبه الثعبان حسب قول العمري، والذي يبلغ طوله حوالي ذراعين ونصف وعرضه يصل إلى مقدار خشبة كبيرة، فضلاً عن وجود التماسيح وفرس البحر، أما النحل فموجود بكثرة ولاسيما في الجبال وعسله متوفر في الأسواق وهو ذو الوان مختلفة حسب مكان تواجده، إذ يتم الحصول على العسل وشمعه دون الحاجة للخلايا، وهناك من يقوم بتربية النحل في خلايا[1].

وأخيراً يشير المؤلف العمري إلى وجود معدن الذهب في ممالك الطراز الإسلامي بعدما يُجلب إليها من مدن داموت وسحام[2] إذ تساوي الأوقية[3] منه من ثمانين إلى مئة وعشرين درهماً حسب جودته، ويسمى النوع الجيد منه (سنبرا) كما يوجد معدن الفضة أيضاً في تلك الممالك[4].

وفي الختام لابد من الإشارة إلى أن مؤلف الكتاب ابن فضل الله العمري بالرغم مما وقع فيه من أخطاء خلال حديثه عن ممالك المسلمين في الحبشة والتي جاء في مقدمتها التسمية وصولاً إلى عدم ذكره بقية ممالك المسلمين فيها واقتصاره على ممالك الطراز الإسلامي، فضلاً عن عدم ذكره لاسم أي من ملوك تلك الممالك رغم حديثه بشكل مفصل عنهم وبالذات ملك اوفات، وعدم تناوله الصراع الذي دار بين المسلمين والنصارى هناك. نقول رغم كل ذلك إلا أن كتاباته أعطتنا صورة واضحة عن المنطقة دفعت بعض المؤرخين الذين جاءوا بعده إلى الاعتماد عليه كالقلقشندي وغيره.

---

(1) العمري، نفسه، ص50.

(2) داموت وسحام: وهما اقليمان حبشيان يقعان شمال مملكة داره الإسلامية ويعتنق سكانهما النصرانية. يُنظر: تامرات، القرن الأفريقي: 433/4.

(3) الأوقية: وتستخدم في تقدير قيمة الذهب، وكانت تساوي على الأغلب 12/1 من الرطل ووزنها مختلف من منطقة لأخرى فهي تعادل في الحجاز (125غم) أي (40درهماً) وفي مصر تساوي (12درهماً). يُنظر: هنتس، المكاييل والأوزان، ص19–20.

(4) العمري، مسالك الأبصار، ص40–41.

The Islamic Kingdoms in Abyssinia through the Book "Masalik Al-Absar Fi Mamalik Al-Amsar" Written by Ibn Fadhil-Allah Al-Imary

Dr. Bashar Akram Jameel*

Abstract

This research deals with The Islamic Kingdoms in Abyssinia (Ethiopia) in the book "Masalik Al-Absar Fi Mamalik Al-Amsar" written by Ibn Fadhil-Allah Al-Imary. The Author writes about the Muslim Kingdoms in Abyssinia after gaining information from conducting interviews with Ethiopian Philologists who have visited Egypt.

Al-Imary has presented a rather small perspective of the geography of the area, specifically its borders in addition to the language of the population, and the widespread Hanafi school of (Fiqh) jurisprudence.

* Dept. of History/ College of Arts/ University of Mosul.